صغر سنه لم يمنعه من الكمال

الإمام محمد الجواد (ع) يفوق أهل زمانه علماً وأدباً

أليس مزاحم

ولد الإمام محمد الجواد (ع) ابن الإمام علي الرضا (ع) في عصر المأمون العباسي، وذلك في العاشر من رجب سنة ١٩٥هـ (٨١٠م)، واستشهد في خلافة المعتصم، في التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م).

ولقد نشطت الحياة الفكرية والعلمية في عصر المأمون الذي جمع العلماء والأدباء والمترجمين في بلاطه، وأسس دار الحكمة التي تعتبر من أهم المعالم الثقافية في العصور العباسية.

وتُعتبر تلك العصور أكثر العصور الإسلامية التي عرفت اختلاط الثقافات والشعوب والأمم إثر الفتوحات الإسلامية الواسعة، فقد انتشرت آنذاك الثقافات الفارسية واليونانية والهندية، بالإضافة إلى ثقافة الديانتين اليهودية والنصرانية.

وتلاقي الأفكار والثقافات أدى إلى انتشار النقاشات واحتدامها في أروقة البلاط العباسي وفي مجالس أهل الخاصة والعامة. فكان على علماء المسلمين المشاركة في خضم ذلك البحر المتلاطم من الأفكار والاعتقادات، والتصدي بسلاح الفكر والعقيدة للملحدين والزنادقة، ومحاججة أهل الكتاب وأهل الملل والنحل بالعلم والمنطق، كما كان المسلمون أنفسهم يتجادلون فيما بينهم على مستوى العقيدة والشريعة، وكان الإمام الجواد (ع) ـ ومن قبله آباؤه (ع) ـ مقصد العلماء والسائلين والمشككين بعقيدته وإمامته، يناقشونه بشتى المسائل التي احتدم النقاش حولها آنذاك، فكان موضع إعجاب الخاصة والعامة نظراً لعلمه الواسع وأدبه الجم، على رغم صغر سنه، إذ تؤكد المصادر أنه تولّى الإمامة وهو في التاسعة ـ أو في السابعة ـ من عمره الشريف.

في هذه المقالة نستعرض جانباً يظهر تضلّعه (ع) من علوم القرآن والفقه والفلسفة، وتفوّقه على أهل زمانه.

إفحام الإمام (ع) لقاضي القضاة في مجلس المأمون

كتم القوم أنفاسهم، وكأن على رؤوسهم الطير.. أيقدر ابن التاسعة من عمره أن يتحدّى قاضي القضاة في مجلس الخليفة فيجيب على أسئلته؟!

أينجح الإمام محمد بن علي الجواد (ع) في هذا الامتحان، بعد أن ضاق العباسيون بقرار المأمون بتزويج ابنته من الإمام (ع) قائلين له: "يا أمير المؤمنين، أتزوّج ابنتك وقرّة عينك صبياً لم يتفقه في دين الله، ولا يعرف حلاله من حرامه، ولا فرضه من سننه؟ إن هذا الفتى وإن راقك منه هديه، فإنه صبي لا معرفة له ولا فقه، فامهله ليتأدب ويقرأ القرآن ويتفقه في دين الله ويعرف الحلال من الحرام، ثم اصنع ما تراه بعد ذلك". فقال لهم المأمون: "ويحكم، إني أعرف بهذا الفتى منكم، وإن هذا من أهل بيت علمهم من الله تعالى ومواده وإلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبين لكم به ما وصفت لكم من حاله".

فقالوا له: "لقد رضينا لك يا أمير المؤمنين بامتحانه، فخلِّ بيننا وبينه لننصب مَن يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في حقه، وظهر للخاصة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه، وإن عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب في معناه".

لم يكن العباسيون يخشون على مستقبل ابنة المأمون ـ أم الفضل ـ **في ظل زواجها من الإمام الجواد (ع) لصغر سنه، بل كانوا يخشون أن تعود الأمور إلى مجراها الصحيح**، فيتسلم الإمام (ع) إمامة المسلمين وزعامتهم بعد وفاة الإمام الرضا (ع). ويظهر ذلك حين قالوا للمأمون: "ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا [ع]، فإنا نخاف أن يخرج به عنا أمر قد ملكناه الله، وينتزع منّا عزّاً قد ألبسناه الله، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت حتى كفانا الله المهم من ذلك، فالله الله أن تردّنا إلى غم قد انحسر عنا، واصرف رأيك عن ابن الرضا، واعدل إلى مَن تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيرهم..".

اجتمع الرأي أن يسأل يحيى بن أكثم ـ وهو يومئذ قاضي القضاة ـ الإمام الجواد (ع) مسألة لا يعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وطلبوا من

المأمون أن يختار يوماً للاجتماع، فأجابهم إلى ذلك، فاجتمعوا في اليوم المتفق عليه بحضور أهل الخاصة والعامة، وجلس يحيى بين يدي الإمام (ع) والمأمون جالس بالقرب منه (ع). فقال القاضي للمأمون: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عن مسألة؟ فقال المأمون: استأذنه في ذلك.

فأقبل يحيى بن أكثم فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟

فقال أبو جعفر (ع) "**سل إن شئت**".

فقال يحيى: ما تقول، جعلت فداك في محرم قتل صيداً؟

فقال أبو جعفر (ع): "**قتله في حل أو حرم؟ عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حراً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان أم من غيرها؟ من صغار الصيد أم من كباره؟ مصراً على ما فعل أو نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم بالنهار؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟**".

فتحيّر يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع، وتلجلج حتى عرف جماعة أهل المجلس عجزه.

تواضع الإمام (ع) وأدبه

لم يشأ الإمام (ع) أن يظهر عجز القاضي عن الإجابة أمام الملأ، فلم يفصِّل الإجابة بنداً بنداً، إلاّ حين تفرّق الناس، وبقي من الخاصة من بقي، وبعد أن طلب منه المأمون ذلك قائلاً:

جعلت فداك! إن رأيت أن تذكر الفقه فيما فصلته من وجوه قتل المحرم لنعلمه ونستفيده.

فقال الإمام الجواد (ع): "**نعم**.

❋ **إن المحرم إذا قتل صيداً في الحل، وكان الصيد من ذوات الطير، وكان من كبارها فعليه شاة.**

❋ **وإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً.**

❋ **وإذا قتل فرخاً في الحل، فعليه حمل قد فطم من اللبن.**

❋ **فإذا قتله ـ أي الفرخ ـ في الحرم، فعليه الحمل وقيمة الفرخ.**

❋ **فإذا كان من الوحش، وكان حمار وحش، فعليه بقرة.**

❋ **وإن كان نعامة فعليه بدنة.**

❋ **وإن كان ظبياً فعليه شاة.**

❋ فإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم، فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة.

❋ وإن أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه، وكان إحرامه للحج نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة.

❋ وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد عليه المأثم، وهو موضوع عنه في الخطأ.

❋ والكفارة على الحر: في نفسه، وعلى السيد: في عبده، والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط ندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة".

احتجاجه (ع) في جوانب فلسفية وكلامية

روى أبو داود بن القاسم الجعفري قائلاً: قلت لأبي جعفر الثاني (ع): ﴿**قل هو الله أحد**﴾، ما معنى الأحد؟

قال (ع): "**المجمع عليه بالوحدانية، أما سمعته يقول: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله﴾** [العنكبوت: ٦١]، **ثم يقولون بعد ذلك له شريك وصاحبة**".

فقلت: وقوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال (ع): "**يا أبا هاشم، أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها، ولم تدرك ببصرك ذلك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار**".

وسُئل (ع): أيجوز أن يقال الله: إنه شيء؟ فقال (ع): "**نعم، نخرجه من الحدّين، حد الإبطال، وحدّ التشبيه**".

وسأله رجل فقال: أخبرني عن الرب تبارك وتعالى، أله أسماء وصفات في كتابه، وهل أسماؤه وصفاته هي هو؟

فقال أبو جعفر (ع): "**إن لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: "هي هو" أنه ذو عدد وكثرة، فتعالى الله عن ذلك، وإن كنت تقول: هذه الأسماء والصفات لم تزل فإن مما (لم تزل) محتمل على معنيين: فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو يستحقها، فنعم. وإن كنت تقول: لم تزل صورها وهجاؤها وتقطيع حروفها فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله تعالى ذكره ولا خلق، ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه، يتضرعون بها إليه ويعبدون، وهي (ذكره)، وكان الله سبحانه ولا ذكر، والمذكور**

بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل والأسماء والصفات مخلوقات، والمعني بها هو الله، لا يليق به الاختلاف ولا الايتلاف، وإنما يختلف ويتألف المتجزئ.

ولا يقال له قليل ولا كثير، ولكنه القديم في ذاته، لأن ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد ولا متجزئ، ولا متوهم بالقلة والكثرة، وكل متجزئ أو متوهم بالقلة والكثرة فهو مخلوق دال على خالق له، فقولك: (إن الله قدير) خبرت أنه لا يعجزه شيء، فنفيت بالكلمة العجز، وجعلت العجز لسواه، وكذلك قولك: (عالم) إنما نفيت بالكلمة الجهل، وجعلت الجهل لسواه، فإذا أفنى الله الأشياء أفنى (الصورة والهجاء والتقطيع) فلا يزال من لم يزل عالماً".

فقال الرجل: فكيف سمينا ربنا سميعاً؟

فقال (ع): **"لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع، ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس، وكذلك سميناه (بصيراً) لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار من: لون أو شخص أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر طرفة العين، وكذلك سميناه (لطيفاً) لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وما هو أخفى من ذلك، وموضع المشي منها والشهود والسفاد، والحدب على أولادها، وإقامة بعضها على بعض، ونقلها الطعام والشراب لأولادها في الجبال والمغاور والأودية والقفار، وعلمنا بذلك أن خالقها لطيف بلا كيف، إذ الكيف للمخلوق المكيف، وكذلك سمينا ربنا (قوياً) بلا قوة البطش المعروف من الخلق، ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من الخلق لوقع التشبيه واحتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً، فربنا تبارك وتعالى لا شبه له، ولا ضد، ولا ند، ولا كيفية، ولا نهاية، ولا تصاريف، محرم على القلوب أن تحتمله، وعلى الأوهام أن تحدّه، وعلى الضمائر أن تصوّره، جلّ وعزّ عن أداة خلقه، وسمات بريته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً".**

خاتمة

لعلّ عرض هذه النصوص التي أوردناها، دليل على سعة علم الإمام الجواد (ع)، هذا العلم الذي ورثه عن آبائه (ع)، واستطاع خلال عمره الشريف الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين أن يفوق أهل الخاصة والعامة علماً وأدباً، حتى أسكت أعداءه حجةً ومنطقاً، وأفرح قلوب شيعته ثقةً وولاءً. أما عن تسلمه الإمامة وهو صبي لم يبلغ الحلم، وتمكنه من تلك العلوم التي راجت في عصره، بالرغم من صغر سنه، فإن ذلك له مبحثاً خاصاً إن شاء الله.